مذهب التأثير والانفعال
فى النقد الأدبى

هذا مذهب فى النقد يخالف المذاهب السابقة، لأنه مبنى على تأثير النفس وانفعالها بما يبقى فيها من أثر القراءة والدرس. فليس له أى صبغة عامية، ولا أى قاعدة يبنى عليها. بل مرجعة الميول النفسية. والتأثيرات الشخصية، فهو نوع من اللذة العقلية التى يجدها القارئ فى الفنون، ويشعر بها عندما يراها أو يعثر عليها، فيما يقرأ من أساليب الكتاب وأفكارهم، ولا سيما فى الصلة النفسية التى يجدها، بينه وبين الكاتب أو الشاعر، فيظهر له أنها هى بنفسها ميوله وأهواءه. قال أحد أساطين هذا المذهب(١): "وعندما أقلب آخر صفحة من كتاب أقرأه أشعر كأن ثمل بما امتلأت به نفسى من الأثر بما قرأت، وأجدنى أحيانًا متأثرًا بانفعالات كثيرة شديدة محزنة، فأجد قلبى مفعمًا بنوع من الشفقة المهمة، وتارة أجدنى مضطربًا من شدة السرور، وكأنما يجرى ذلك فى لحمى ودمى" هذا كلام جول لمتر "Jules Lemaitre" لأن النقد عنده نوع من اللذة العقلية العلمية. فإن العواطف والإحساسات تتغذى بالمعلومات التى هى من وسائل تربية الشعور. وهو يرى أن الشعور من

(١) هو جول لمتر "Jules Lemaitre" زعيم مذهب التأثير والانفعال "Impressionisme" وهو من الكتاب البلغاء، والنقاد المعروفين فى فرنسا. مات سنة ١٩١٤ بعد أن كتب عدة كتب تعد من أحسن كتب النقد فى فرنسا. أشهرها مقالات سلسلة مقالات جمعت فى نحو ثمانى مجلدات وسماها "المعاصرون" "les Contemporains" انتقد فيها الكتاب على اختلاف نزعاتهم، بعبارات بليغة سلك فيها مسلك التأثير والانتقال الذى كان يحصل له عند الانتهاء من قراءة ما يقرأ.

الأشياء النسبية التى تختلف باختلاف الأمزجة والأحوال. فلقد يقرأ الإنسان بعض المؤلفات، ويعجب بها أول مرة، فإذا أعاد قراءتها لم يجد فى نفسه الإعجاب الأول. ذلك لأن الشعور يتغير دائمًا. فيلزم الإنسان ألا يجرأ بالحكم على ما يقرأ حكمًا نهائيًا لا يقبل النقض، لأن كل رأى فنى لا يصح أن يكون حكمًا باتًا، إذ لا يدل على شىء سوى تأثير وقتى، فإنه ميل شخصى قابل للتغير، ويمكن أن يجدد هذا التأثير فى نفس شخص آخر غير القارئ، كما أنه ربما لا يعود مرة أخرى عند شخص واحد فى قراءته كتابًا واحدًا.

وصاحب هذا المذهب لا يعنى إلا بما يجب من عقول الكتاب وآثارهم فى الكتابة. لأنه يقول: "إن القارئ إذا أراد أن يفهم الكاتب لابد من حبه والميل إليه. فإن الذكاء والفهم ليسا إلا ضربًا من الرغبة والميل إلى الأشياء أو المعقولات، وذلك يساعد على فهم الفنون والافتنان فيها، ولكن كل إنسان يفهم ذلك على حسب فطرته وطبعه الشخصى". وحسب هذا المذهب أهمية أنه يبحث عن مواضع الجمال لإظهار مواهب الكاتب وفهم قصده، وأنه يجعل فائدة النقد ليست أقل أثرًا من قراءة الكتب الممتعة، وقد يفوقها أحيانًا فى الاستمرء، فقد يلذ للناقد نقده، كما تلذ له قراءة كتب الآداب المختلفة.

ومهما قيل من أن مذهب من لا مذهب له فى النقد، فإنه رغم كل شىء مبنى على الاختيار الصحيح، والاستسلام إلى ذوق تربى وتهذب بالعلم. وربما تشابه مع المذاهب الأخرى من حيث الوصول إلى غاية واحدة. وهى توضيح وفهم أثر العقول والأفكار، لأن أصحاب هذا المذهب يرون أن المذاهب النقدية هى أيضًا ميول شخصية واستسلام إلى الأذواق المقيدة تقييدًا صريحًا ببعض قواعد العلوم والفنون. كما يرى الآخرون أن طريقة أصحاب

التأثيـر والانفعال مـبنية على الاختـيار الذى يرجع فى جـملته إلى ذوق تربى تربية علمية مبنية على أصول وقـواعد، تهذب بأنواع الفنون. مذكر هنا جملة من كلام جـول لمتر فى كتابه "المعـاصرون" لنتعرف رأيه من كـلامه، ونقف على صورة من نوع هذا النقد المبنى على التأثير والانفعال. قال هو يتكلم عن الكاتب الـشـهـيـر أناطول فـرانس (Anatol France). "من آراء مـونتى "Montaigne" الممتعة: أنه لا يمكنا أن نقف على معلومات صحيحة ثابتة. إذ ليس فى الوجود ما لا يقبل التغـيير لا فى المشاهدات ولا فى المعقولات. وأن العقول ومـا يتصل بها فى حركة دائـمة؟ ثم قال: ونحن متغـيرون، فلابد أن يكون إدراكنا للعـالم متغـيراً أيضًا، ولـقد يكفى فى تغيـير الأشـياء المحكوم بقبولها أن تمر بأفكارنا التى من شأنها ألا تثبت على حال واحدة ونحكم عليها على حسب المؤثرات الوقتية، ليدركها التغـيير ونحكم عليها حكمًا جديداً غير الأول. فكيف يمكن أن يثبت النقد ويلزم طريقة واحدة لا تتغير؟ تمر المؤلفات بعقولنا مروراً تتغير فى أثنائه ذاكرتنا فإذا مرت بها مرة أخرى تصورناها تصوراً آخر وحكمنا عليها حكمًا جـديداً، وكل إنسان له أن يجرب ذلك بنفسه . . . لقد مرت بى أزمان وأنا معجب كل الإعجاب بفكتور هوجو، وها أنا ذا الآن أشعـر بأن روحه غريب عن روحى، ولا أكـاد أعيد قـراءة الكتب التى كانت تملأ نفسى إعجابًا وتبكينى أحيانًا، منذ خمسـة عشر عامًا، إلا وجدتنى غيرى بالأمس، ومهمـا أردت أن أخلص فى فهمى لها والحكم عليهـا فإنى أجدنى مخـالفًا لآرائى السـابقة، ولقـد أتردد أحيـانًا فى أن أصرح برأيى. قـد يذكر الإنسان ما كان يتذوقه فى الأيام الخالية، وما أمره أساتذة بالميل إليه، لأن هذا الميل والشعـور هما اللذان يكونان أحكام النقد فى الأدب لدى بعض العـقول شىء كثير من القوة والثبـات تتمكن بهما من بناء الأحكام على أصول ثابتة.

هذه العقول بطبيعتها، أو بما لها من الإرادة، ذات ذاكرة قليلة التغيير والانتقال، أو بعبارة أخرى، هى عقول قليلة الابتكار، لأن المؤلفات على اختلافها تمر بها فتحدث فيها دائمًا أثرًا واحدًا. ولكن هذا نوع من الميول الشخصية الثابتة. ولا يمكن أن تتحكم هذه الطرق فى جميع العقول.

يحكم الإنسان بالحسن على ما يحب، وبعض الناس لا يعرف إلا طريقًا واحدًا فى الحكم لأنه يحب شيئًا خاصًا ويظن أنه محبوب لجميع الناس، وبعضهم ليس لديه من الإرادة ما يجعله يلزم طريقًا واحدًا فى الحكم والإدراك، ومهما يكن من شىء، فالنقد الصحيح فى جميع أشكاله ليس إلا عبارة عن وصف التأثير النفسى الذى يحدث من القراءة فى نفس القارئ. وأن كل عمل فنى هو نتيجة ما يتأثر به المؤلف من حوادث الحياة فى بعض الأوقات. ومن حيث إن الأمر كذلك، فلحنت الكتب التى تعجبنا، بدون أن نعنى بمنزلتها، أو بمذاهب النقاد، عالمين أن ما نجده من الأثر أثناء قراءة هذه الكتب اليوم، لا يلزم أن نحصل عليه من قراءتها فى الغد. وماذا على إذا قرأت كتابًا ممتعًا عظيمًا خالد الذكر، فلم يحرك من نفسى، ولم يترك فيها أثرًا ما؟ ثم ماذا يكون إذا أعجبنى كتاب تافه ونال منى؟ هل أظن أنى مخطئ فأعود باللوم على نفسى؟ إن عظماء الرجال لا يتسنى لهم أن يكونوا دائمًا واثقين بأنفسهم ولا بما يقولون، فقد يغلب عليهم فى كثير من الأوقات، الجهل والسذاجة والأشياء التى يسخر منها الناس، وكثيرًا ما يحكمون أحكامًا غير عادلة مبنية على سهولة الإدراك لديهم، فهم لا يعرفون كل ما يعملون، ولا يعلمون كل ما يعلمون عن قصد وروية . . .[1].

(1) Contemporains. T. 2. Page. 83 - 86.

هذا شيء من مـذهب "جول لمتـر"، نأخذ منه أن النقـد عنده لا يبنى على قاعـدة، ولا يقيد بمذهب من المذاهب. إذ لا يصح أن يفهم الإنـسان ما يقرأ بعـقل غيره، كمـا أنه لا يمكن أن يرى بعينى عـيره، ولا أن يفكر بفكر غـيره. كل هذا مـبنى على أن الغـرض من قـراءة كتب البـلاغـة لذة النفس وسرورها، لا التـعلم والاستفـادة، كما أن الغـرض من سماع الموسـيقى لذة السمع، والغرض من الـتصوير تمتع النظر. وعلى ذلك تكون البلاغـة وجميع الفنون نوعًا من السرور لا غير، والنقـد ليس عبارة عن حكم القارئ على ما يقرأ، وإنما هو فهمه لما يقرأ، وشعوره بما فى ذلك (Contem. T. 3. 340)

ولكن هذا المذهب ليس له طريقـة خاصة تتعلم، بل هو مـذهب شائع بين كل القراء. فكل إنسان يمكنه أن يشعـر ويتأثر بما يقرأ، فكيف يمكن قدر الكتاب والشعـراء؟ وبأى شيء يصل الإنسان إلى تفضيل كـاتب على غيره إذا استـسلمنا لأذواق الأفـراد. مهـما أنكر مـذهب التأثيـر والانفعـال القـواعد والقوانين العامة للنقد الأدبى، ولا يمكن إنكار أن هناك جهـة عامة تتفق فيها جـميع الأذواق: هـذه الجهـة فى رأينا هى مـا يوجـد فى الفنون من المعـانى الإنسـانية العـامة. لأن كل فن من الفنون يقـصد إلى تمثـيل شيء من حـياة الإنسان العقلية أو المادية، وهذا يوجد فى كل نفس ويشعر به كل إنسان، لأنه تمثيل الطبيعة التى هى الجهة العامة فى كل عـمل فنى ى قيمة حقيقية. وذلك ما يرى فى الفنون العظيمة لكبار الرجال ويخلد ذكرهم.

يقول جول لمتـر: يتغير النقـد تغييراً لا نهاية له، عـلى حسب الموضوع الذى يقرأ، وعلـى حسب العقـول التى تبحث، وعلى حـسب المابحث التى تقصـد، إذ يمكن أن يكون غرض الناقـد البحث عن الكاتب نفـسه، أو عن

الأفكار فى ذاتها. ويمكن أن يكون غرض الناقد الحكم على ما يقرأ. ويمكن أن يقصد إلى بيان وتعريف وتوضيح ذلك بدون أن يبدى رأيًا له. قال: "وقد ابتدأ النقد بطريقة مذهبية وانتقل إلى آراء تاريخية وعلمية. والظاهر أن أطواره لم تنته بعد. وقد ظهر نقص الطريقة العلمية، فالنقد آخذ طريقًا آخر وهو التمتع بالقراءة لترقيق الشعور وإنمائه بما يطلع عليه الإنسان" .(Contemporains T. 3. P. 342)

ويميل "جول لمتر" إلى الصراحة فى الفكر ووضوح الكتابة، وحسن ذوق الكاتب، بأن يكون من طبعه جذب قلوب القارئين إليه، ويحب أن يمزج البلاغة اللفظية فى الأسلوب بمتانة الموضوع ودقة الأفكار النافعة.

وعلى الجملة فمذهب التأثير والانفعال هو عبارة عن تتبع ما تحتوى عليه الفنون لجذب القلوب إليها، لأن هذا فى رأيهم هو معنى الجمال، إذ الجمال عند هؤلاء لا يتحقق ولا يكون له معنى إلا إذا وجد من النفوس ميلا، ونزل من القلوب منزلة الإعجاب. بل قال بعضهم إن الكاتب الذى لا يمكنه أن يجذب قلوب القارئين إليه، ولا يعرف أن يستولى على إحساساتهم ليملك منهم إرادتهم، ليس فى كتاباته شىء من الجمال، ولا يعد من كبار الكتاب، لأنه لم يتسن له الوصول إلى المعانى العامة التى تلمس الأفئدة والقلوب.

***